MHR NGO / MIZAN ORGANIZATION
FOR RESEARCH AND HUMAN RIGHTS

نساء في هولوكوست الأسد

القصة السابعة

أين طفلي؟

ليست رواية، هي فصول في حكايا ما تزال واقعاً مستمرا،

مدونة من قبل منظمة ميزان للدراسات وحقوق الإنسان

بالاستماع لشهادات حيّة للناجيات الضحايا

حقوق النشر محفوظة للكاتب (منظمة ميزان للدراسات وحقوق الإنسان)

الطبعة الإلكترونية الأولى 31 يناير 2023

HTTPS://MHR.NGO/

+90 536 072 24 02

info@mhr.ngo

https://twitter.com/mhrngo

https://www.facebook.com/mhrngo

https://www.youtube.com/channel/UCfzyghJSA4FEsri33XxAOAg

https://instagram.com/mhr_ngo

جميع القصص المكتوبة ههنا حقيقة، دُوّنت وصيغت عن بطلاتها، يحكين قصصهن وقصص أبطال وبطلات غيرهن، مازالت فصول جديدة في حكاياتهن واقعاً مستمرا؛

دعونا نقرأ حكاياتهن المُدوّنة بجلسات استماع مسجَّلة لهن، أنجزها خبراء ومختصون في منظمة ميزان للدراسات وحقوق الإنسان، وصاغوها بأسلوب قصصي موحد، دونما أي تغيير في الحقائق، فقط السيناريو للضرورة الأدبية وبعض الأسماء والأماكن، أجروا عليها تعديلات لحماية الخصوصية؛

استغرق العمل عليها سبعة شهور، ليست كالشهور التي عاشها الضحايا في السجون المغلقة والمفتوحة على جروح لم تندمل لديهم ولدى أحبابهم بعد؛

القصة السابعة

أين طفلي؟

الخطف والإخفاء، الحرمان والتعذيب والإهانة، لم يكونوا أسوأ ما عشت في تجربة اعتقالي، فهناك ما هو أفظع؛

وقد كنّا من قبل سعداء بحياتنا البسيطة، يعود زوجي من عمله في البناء، فيغسل تعب النهار على سفرة العشاء، تجمعنا، وأولاده يتدافعون نحوه في سباق لمن يجلس في حضنه أو قربه، وهو بين كل لقمة ولقمة يأكلها، يُؤثر أولاده بأطيبها من على السفرة، لم يكن من المهتمين بالشأن العام، حتى بدلت الثورة السورية حاله، فبات يكثر من الحديث عن الظلم الذي يتعرض له الناس، ويتفاعل بإحساس

عالٍ مع ما يسمع من قتل وتنكيل يرتكبه الأمن بحق الأهالي، يزيد من وطأة ذلك أننا في منطقة خليط من السنة والعلوية، وفيما كنا جيراناَ، نتعايش معهم بمحبة وسلام، فاجأونا أنهم يخبرون الأمن عمن يتعاطف منا مع الثورة، ثم فعلوا أكثر من ذلك بأن حملوا السلاح وشكلوا مجموعات من الشبيحة، يداهمون المظاهرات، يضربون ويخطفون ويقتلون – مع الأمن - الشباب العزل، تحركت لدى زوجي الحمية أكثر وانضم - سراً - لكتيبة جيش حر شكلها بعض أبناء منطقتنا، والشبيحة مع الأمن والجيش يوسعون من دائرة الضحايا بالاعتداء على النساء والأطفال والشيوخ خلال حملاتهم في مداهمة البيوت للبحث والتفتيش عمن ينضم أو يتعاون أو يتعاطف مع الجيش الحر؛

حرص زوجي آنذاك على عدم كشف أمره، وبالرغم من تركه عمله ليمضي معظم يومه مع الثوار في البساتين، كان يلف وجهه بشماخ خلال الطريق إليهم، حتى اتصل بي ذات يوم يطلب مني انتظاره مع الأولاد على العشاء وإن تأخر، فهو كما أخبرني مشتاق إليهم، وفيما بقيت إلى منتصف الليل ألاعبهم كيلا يناموا قبل مجيئه، طرق

الجيران بابي يخبرونني أن الأمن اعتقله في مدخل البلدة زوجي وشاب آخر معه، نزل الخبر كالصاعقة عليَّ، وعبثاً ذهبت محاولاتي في الاتصال به أو السؤال عنه، هاتفه مغلق ورغم معرفتنا بمكان اعتقاله لا أحد في المنطقة يجرؤ على التوسط لأجله، فتهمته كما يقولون إرهابي؛

زوجي حبيبي أبو خالد صاحب القلب الرقيق، في قامته المستقيمة الطويلة، وعضلاته المفتولة بمنكبين عريضين وساعدين كالحديد، تخاله وكأنه قطعة من الاسمنت المسلح الذي يصنعه، يحمل قلباً رقيقاً كأطفاله الذي حرص لأيام ألا يروا وإياي دموعه، وكلما انتبهت أسأله يحدثني عما يسمع من تعذيب واعتداء يتعرض له المعتقلون رجالاً ونساء، اليوم هو معتقل معهم، وقد دفعته حميته لحمل السلاح دفاعاً عن المتظاهرين وعنهم، زوجي وحبيبي أبو خالد كان محور حياتي، يملأ بحبه فراغي، ويكفيني هم الانشغال بلوازم البيت والأطفال، تركني لأول مرة الآن وحيدة، وفيما كنا بلا دخل خلال الأشهر الأخيرة التي انصرف فيها للعمل مع الجيش الحر دفاعاً عن الناس، استنفذنا مدخراتنا، وبات أطفالي ينامون جياعاً، وبالرغم من

أن أهل بلدتي بين حين وحين يتعاطفون معي بالسؤال وجلب بعض الحاجات، قررت الاعتماد على نفسي، وعملت بائعة متجولة، أستلف بضاعتي من تاجر جملة كان صديقاً لزوجي، وأسدد له الثمن عند تصريفها على بيوت البلدة التي أدور عليها، تاركةً ابنتي وعمرها آنذاك ثلاثة عشر عاماً في البيت، لتعتني بإخوانها، وأعود متعبةً في المساء إلى حالة ثانية من الشقاء، أمضي الليل مع صغاري على مشاعر الأسى واللوعة والقلق على زوجي، وكوابيس لا تفارقني في المنام أراه بصورة من حدثني عنهم من المعتقلين، أخباره انقطعت عنّا تماماً، وكلما سألت أحداً عنه، قال اعتادي على هذا الوضع فالأغلب أنهم قتلوه؛

بعد خمسة شهور علمت خبر الإفراج عن أحد الشبان، هرولت إلى بيته مسرعةً أسأل عن زوجي، وجرعة جديدة من الحياة أعطانيها حينما أجاب أن أبا خالد حي لم يمت، وعلى أمل خروجه بقيت أحد عشر شهراً أنتظر، لا يفارقني مع الدعاء اليقين أننا سنجتمع، وليستجيب ربي لي بداية رمضان، فها هو ذا أبو خالد معنا، خرج وابتسامة صامتة في ثغره، مع لاحة عطف من عينيه الجميلتين تشع

لتطغى على أثار التعذيب البادية على صحته، يكرر دوماً طلبه لي أن أسامحه على ما سببه لي من كدٍ وقهر وألم، ويعدني أنه لن يعاود أي نشاط مع الجيش الحر كيلا يتركنا ثانيةً؛

استعاد زوجي عمله في البناء، وسعادتنا لا توصف وهو كما كان في كل مساء يعود للأطفال بالحلوى وحاجات العشاء، يريد تعويضهم عما فات، يريد محو ذاكرة الرعب والأسى من حياتنا، لكن هيهات لنا أن نعيش معهم في وطن واحد بأمان، ففي أُولى أيام العيد عايدوا البلدة بحملة مداهمة، ونحن نرى من النوافذ العربات وأكثر من خمسين عنصراً ملأوا شارعنا، انصب جل همنا على جيراننا، فما كان يخطر لنا أن بيتنا سيداهم، ذلك أن زوجي بعد الإفراج عنه لم يأت بفعل ولم ينبس بحركة ولم يهمهم بكلمة ضدهم، دون أن يمنعهم ذلك من خلع الباب علينا، ودخول منزلنا بأسلحتهم وإلقائهم القبض على زوجي وولدي خالد؛

نسيت زوجي ووثبت إلى الضابط أصرخ أمامه ليتركوا طفلي، قلت له إنه في عمر عشر سنين، لا يغادر المنزل إلا إلى المدرسة، ما

ذنبه، رجوته أن يتركه، دفعني قائلاً سؤال وجواب ونعيده إليك، تمسكت بابني أشده من بين أيديهم نحوي، ومعي ابنتي التي اعتادت الاعتناء به، تحتضنه ملتصقة به وباكية لأجله، وهم دونما رحمة ركلوها حتى ارتطمت بجدار الدار، وانهالوا عليّ بالسباب البذيء أنهم سيأخذون ابنتي معهم إذا لم أخرس؛

ويا هون لوعتي وعذابي في تجربة اعتقال زوجي الأولى، فها هو الآن عندهم ومعه فلذة كبدي، لأيام ثلاثة سمعت بعدها أن زوجي تمكن من الهروب منهم على حاجز التربة في قطنا، أكاد لا أصدق وأنا أعرف ما أسمع عن خطورة هذا الحاجز وشدة التعذيب فيه، ومشاعري في الخوف على ولدي طغت على فرحتي بنجاة زوجي، وكما توقعت داهموا بهمجية منزلنا يفتشون، ويسألون؟

تمالكت نفسي وأنا أجيبهم بارتياح على سؤالهم "أين هما، صالح وابنه؟"

وكنت قد اعتقدت من صيغة السؤال أن ابني خالد - مع أبيه - قد نجى منهم، قلت أليسا عندكم؟ أنتم أخذتموهما!

قال أحدهم: لا، هما هربا من عندنا، وأنت التي تعلمين أين يختبآن؛

قلت: لم يأتيا إلى هنا، ولا نعرف عنهما شيئاً ولا أصدق أنهما هربا؛

أشار الضابط إلى أحدهم فضربني على رأسي، ومن على الأرض سحبني إلى إحدى سياراتهم، وفيها كبّل يدي وعصب عيني، وقادني إلى ما عرفت لاحقاً أنه فرع الأمن العسكري، أنزلوني في درج طويل إلى قبو تحت الأرض، دفعوا بي إلى زنزانةٍ وأقفلوا علي بابها حتى يومين، لم يكلّمني فيها أحد، أخرجوني معصوبة العينين مكبّلة إلى التحقيق، أحلف لهم أني لا أعرف عن زوجي شيئاً، لا أعرف له مكاناً بعد أن اعتقلوه مع ابني، وهم لا يصدقون، يكررون أني كاذبة وبأبشع الكلمات ينادونني، ويهددون أنهم سيفعلون ويفعلون...... ضربوني ضرباً وحشياً كسر ساقي، وعذبوني حتى فقدت الوعي، وفي كل مرة لا أستيقظ إلا على جولة تعذيب وإهانة جديدة لمدة خمسة عشر يوماً، وأنا لا جواب لدي عن مكان زوجي، نقلوني بعدها من المنفردة إلى مهجع فيه مجموعة من النساء، ورغم أني أنست

بهن، بقيت من خوفي لا أتحدث معهن، ولا أرد على أسئلتهن، وعلى هذه الحال بقيت ثلاثة شهور حتى أفرجوا عني؛

علمت عند خروجي من المعتقل أن أهل بلدتي الطيبين قد جمعوا مالاً من أجلي، ودفعوه لسمسار قريب من الأمن من أجل التوسط للإفراج عني، والجيران خلال ذاك احتضنوا أطفالي الصغار، علمت أن الدورية التي اعتقلتني حرقت بيتنا بما فيه من أغراض قبل مغادرته، حرقوا أيضاً منازل أهل زوجي وأقاربه بعدما عاثوا فيها عبثاً؛

على باب فرع الأمن العسكري لاقاني عمي والد زوجي مع أحد أعيان بلدتنا الذين بذلوا جهداً للإفراج عني، قبلني من رأسي وناولني ابنتي وأصغر أبنائي، وأشار لي إلى سيارة في نهاية الشارع كي اذهب بها إلى حيث يقيم زوجي، أخبرني أن لا أمان لي في البلدة، وأنه يخشى من معاودة اعتقالي، ودونما مزيد من الحديث اكتفيت بالأمل أني سأذهب إلى حيث خالد وأبو خالد، أينما كان مقامهم فهو حلو لدي، وما عدت أريد من الدنيا سوى لم شملي بهما، وها هي ابنتي تحت جناحي ملتصقة، وولدي الأصغر في حضني نستقل

السيارة باتجاه خان شيخون، والسائق المعتاد على الطريق يناول العناصر على كل حاجز نصادفه رزمة من المال الذي جمعه الطيبون من أهالي بلدتنا، وأنا ما زلت أعاني رهاب الكلام فلا أحدثه، مكتفيةً بكلمات عمي أني سأكون مع زوجي بأمان؛

وبالفعل وصلت، خان شيخون، المسلحون فيها جيش حر، لا شبيحة ولا مخابرات ولا جيش للنظام هنا، هو الأمل من جديد للعيش مع أسرتي بأمان، عانقني زوجي وحزن دفين في عينيه يكسر سعادة لقائنا، بادرته بالسؤال عن خالد؟

ضمني ثانية على صدره، يخفي عني دموعه، نظرت في وجهه أسأله أين خالد؟ أطرق رأسه باكياً دونما جواب؟

لطمت نفسي ولطمته على صدره أصرخ به أخبرني أين خالد؟ أما زال معتقلاً لديهم، كيف تركته ساعة هروبك معهم؟

أجابني في نحيب يختلط بصوت خافت حزين "ما كنت أعلم أنهم اعتقلوه معي، ما كنت أعلم أنه بجواري وأنا أخوض مغامرتي لأنجو منهم، استغفلت الحرس على الحاجز ليلاً، ضربت ثلاثة منهم،

وأوقعتهم، وتسللت في البراري حتى وصلت المناطق المحررة، لم أكن أعلم أني تركت ولدي لديهم، وبقيت أخطط لإحضاركم حتى علمت من أهل البلد أن خالد ولدي معتقل لديهم، علمت أن الجبناء بعد أقل من ساعة اقتادوه بسيارة ثانية مشت خلف الدورية التي اعتقلتني، ما كنت أعلم أنهم أخذوه معي، وضعوني في السيارة وحدي، وإلى حين هروبي منهم لم أره ولم أسمع صوته، الجبناء أخفوه عني"

جحيمهم يلاحقني، ومع كل عذاب أظنه الأصعب، أجدهم يبتدعون شكلاً من العذاب أشد، صحوت من غيبوبتي والسيروم معلقاً في يدي، أحاول بصعوبة أن استجمع ذاكرتي لأعرف أين أنا، ظننت نفسي ما زلت في المعتقل، لا، لست في المعتقل، فالمكان نظيف، والطبيب إنسان، ابتسم في وجهي وهو يعيد فحصي قائلاً زال البأس أم خالد، نظرت إلى زوجي فإذا بأسنانه مكسرة، وجرح محفور على وجهه من أثر التعذيب، كأني لم ألحظ ذلك ساعة التقينا أمس، تعانقنا من جديد، وما من حديث هذه المرة سوى النحيب، كلانا يفكر بولدنا خالد؛

في خان شيخون لا خوف من الاعتقال يلاحقنا، لكنها مخاطر الموت بالقصف يداهمنا في كل حين، تعايشنا على أوجاعنا معها أربع سنين، حتى لاحقنا النظام مع الروس فيها، ورحلة تهجير جماعي جديدة إلى إدلب، وفيها اهتمَّ زوجي بعلاج ساقي المكسورة من أثر التعذيب في المعتقل، رافقني إلى تركيا حيث تخلصت من بعض إعاقتي وألمي بتركيب مفصل وزرع صفائح، عدنا بعد ذاك إلى الشمال لنسكن أريحة، وفيها مرةً ثانية لا حقنا القصف، وأحال بيتنا الذي كنا نستأجره إلى كتلة نيران، فقدنا على أثر ذاك أغراضنا البسيطة وكافة أوراقنا الثبوتية، وخوفاً على طفلينا قررنا الرحيل، هذه المرة إلى عفرين، حيث خطر الطيران أقل من غيرها في باقي المناطق المحررة، وأبو خالد الذي لم يعد يفارق الدار، فاقمت السكينة من ألمه على خالد، وبين مشاعره في لوم نفسه، وشوقه وقلقه ولوعته أصيب بمرض في قلبه، أوصاه الأطباء على إثره بتجنب الجهد والزعل، كيف ذاك وما من مصدر لنا غير عمله لنعيش، كيف ذاك وقلقه على طفله لا يغادر تفكيره، جسده المتين وروحه المتقدة لم يعودا كذلك، وأنا التي كنت أحتمي به بتّ أحنو عليه، أتذكره فيما مضى، يداه

أقوى من الحديد الذي يسلح به الاسمنت، وقلبه كالصخر لا يهاب المنايا، قصته في التغلب على أعتى الوحوش في حاجز التربة بقطنة ونجاته منهم، تشهد أنه لم يكن يعرف المستحيل، يتحدث أصحابه عن بطولاته، وآخرها يوم خطط في آخر اعتقال - وهم يسوقونه للتعذيب - طريقة يباغتهم فيها بهجومه وحيداً عليهم، حوّل البطل زوجي الجنازير في يديه من قيود لحريته إلى سلاح يذود به كرامته، انتهز الفرصة وهم يسخرون منه ليلاً ليوقع ثلاثة منهم أرضاً وينجو منهم، لم يغلبه تعذيبه، ولم يطو من عزيمته اعتقالهم، لكنه الآن يقتله التفكير فيما جرى لنا بعد ذاك، اعتقالهم لي وتعذيبي، خطفهم لطفلنا البكر خالد وإخفاؤه، التشرد، المرض، الفاقة، الحنين للأهل، القلق على الولد، حب الانتقام مع العجز وقلة الحيلة، لوم النفس والندم أحياناً، الإحباط، تلاشي الأحلام الكبيرة، وأشياء أخرى كثيرة نالت من إرادة زوجي البطل وهدّت من صحته؛

وأنا في جواره أبكي على ولدي بعيداً عنه كيلا أثقل عليه، أحدثه بما أشاهده من أخبار، عساني أعيد إليه الأمل، ومع كل خبر أو حدث أشاهده على التلفاز أبحث عن أثر ذاك على ولدي، سمعت مطلع

العام بمديرة اليونيسيف تزور فيصل مقداد، وزير خارجية النظام، قالوا إنها مسؤولة عن الطفولة، وفيما أتساءل إذا ما كانت تعرف أنهم اعتقلوا صغيري، أناشدها أن تسألهم وهي تلتقيهم عنه، أتابع مثل غيري مسارات التطبيع مع نظام الأسد، وحيث لازلت أظن بالأتراك والعرب والغرب خيراً أناشدهم "أن يطلبوا ولدي من الأسد، قبل أن يعطوه شرف اللقاء، وأنا أفديهم بروحي" من يوصل صوتي أني مثل كل الأمهات والآباء أبحث في الأخبار عن ضوء يكشف مصير ولدي، يعيد فلذة كبدي، من يوصل صوتي أني دون ذاك لن أسامح.

كيلا تضيع الحقيقة، وكيلا يبقين وحدهن، ومن أجل اللواتي لازلن يعشن مثل آلامهن، من أجل إنصافهن، ولضمان عدم إفلات المتورطين بعذابهن، لضمان عدم تكرار ما جرى ويجري بحقهن، عملت منظمة ميزان للدراسات وحقوق الإنسان - بشكل تطوعي وبالتعاون مع الناجيات – على تدوين وصياغة ونشر سبع شهادات لناجيات من هولوكوست الأسد، يذكّرن فيها بقضاياهن وقضايا من لا زلن تحت الاعتقال لإنقاذهن، ويناشدن شعوب وحكومات العالم عدم الإسهام في أية تسوية تتجاوز مقتضيات العدالة اللازمة لبناء السلام المستدام؛